التَّناسُـبُ فِـي سُـورَةِ مُحَـمَّدٍ(ﷺ)
دِرَاسَةٌ بَلاغِـيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

د.أحـمد يحيى علي محمد* د.أحـمد محمد علي محمد**

تاريخ التقديم: 2010/5/10 تاريخ القبول: 2010/6/16

المستخلص

التناسب من المصطلحات البلاغية التي تعبر عن سمة جمالية ووصف لمستوى معين من النظم تتحقق فيه صفات الكلام الذي ينتمي إلى طبقة من البلاغة تتوفر فيها مجموعة شروط, وعلى وفق تفاوت مقدار هذه الشروط تتفاوت مستويات البلاغة, أو مستويات التناسب على أساس كون التناسب في نتيجته النهائية يمثل بلاغة النص وفصاحته, إذ إن هذه المصطلحات الثلاثة تحمل دلالة تلتقي في كثير من الجوانب لتدل على قيم جمالية في التعبير الفني , وإن كان البلاغيون فرقوا بينها من حيث الدلالة وضوابط وجودها في النص, وهذا البحث محاولة للتعرف على مفهوم التناسب بوصفه قيمة جمالية لغوية, والمصطلحات المتقاربة معه دلالة ووظيفة, وهي التلاؤم والتشابه ومراعاة النظير, والكشف عن هذه القيم الجمالية في سورة قرآنِيَّة كريمة, تلكم السورة هي سورة محمد ﷺ, وقد آثر البحث مصطلح التناسب ليكون عنوانا ومن خلال تجلية مظاهره في السورة الكريمة السابق ذكرها

---

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

** قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

ٱ ٻ ٻ

ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ ٻ پ ٻ ٻ پ پ پ پ ٻ
ٺ ٺ ٺ ٺ ٽ ٽ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹٹ ٹ ٹ
ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڃ ڃ ڃ ڃ
ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڈ ڈ
ڈ ڈ ڈ ڈ ڑ ڑ ڑ ک ک ک ک ک ک ک گ گ گ
گ گ گ گ گ گ گ ں ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ
ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۉ ۉ
ۋ ۋ ۋ ۅ ۅ ۅ ې ې ې ې ې ې ئا
ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئې ئې ئې ئې
ئى ئى ئد ى ى يد ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى
بي تج تح تخ تم ٱ ٻ ٻ ٻ پ ٻ ٻ پ پ پ پ
ٺ ٺ ٺ ٺ ٽ ٽ ٽ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ
ڤ ڤ ڤ ڤ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ
ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڑ ڑ ڑ ڑ
ک ک ک ک ک گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ
ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ
ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۉ ۉ ۇ ۋ
ۋ ۅ ۅ ۅ ې ې ې ې ې ئا ئا ئا ئە ئە
ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئې ئې ئې ئى ئى ئد
ى ى يد ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج
تح تخ تم تى تي ثج ثم ثى ثي جح جم حج حم خج
ٱ ٻ ٻ ٻ پ پ پ ٻ ٻ ٻ ٺ ٺ ٺ ٽ ٿ ٿ ٿ ٿ
ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ
ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڈ ڈ ڈ ڈ ڈ ڑ ڑ
ڑ ڑ ک ک ک ک ک ک ک گ گ گ گ گ گ گ گ
گ گ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ے ے
ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۉ ۉ ۈ ۈ ۋ ۋ ۅ ۅ ۋ
ۋ ې ې ې ې ې ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ

ئۆ ئۈ ئۇ ئى ئې ئې ئې ئې ئد ٱ ٻ ٻ ٻ ٻپ پ ڀ
ڀ ٻپ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڦ ڦ
ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ڄ ڄ ڇ ڇ ڇ ڇ چ چ
ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ڑ ڑ ڑ ڑ ک ک ک
ک ڪ ڱ ڱ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ڱ ڳ
ں ں ڻ ڻ ۀ ۀ ۀ ۂ ۂ ہ ۂ ھ ھ ھ ھ ے ے
ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ
ۑ ې ې ۑ ۑ ۓ ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇئۇ ئۇ ئۆ ئۆ
ئۈئۈ ئې ئې ئې ئې ئى ئى ئد ى ى ې ې محمد: ١ - ٣٨

التناسب:

مفهومه وإشكالية تداخل مصطلحاته..

يعد مصطلح التناسب من المصطلحات المتشعبة العلاقات التي لها صلة بأكثر من فن بلاغي,ويمتد إلى أبواب متعددة من النظم في اللغة, لذلك فهو مصطلح شائك ,ولا نكاد نظفر بتعريف جامع مانع له عند أهل الفن من علماء اللغة والمعاني.

فالتناسب لغة مصدر الفعل (تناسب) أي:ائتلف وتشاكل وانسجم حتى لا تجد ثمة اختلاف بين أجزائه ,وفلان ناسب فلانا يناسبه إذا اتصل به وانسجم معه.(1) وما يهمنا من ذلك إشارة اللغة إلى دلالة الاتصال بين المتناسبين

---

(1) ينظر: مقاييس اللغة ,ابن فارس/988.

التي تتسبب عن وجود نوع من الآصرة تولد نوعا من التوافق , وهذه العلاقة توحي بالتماثل والتشاكل, ومن دلالة المناسبة القرابة(2) ,وقد وصف الله ﷿ كتابه المجيد بقوله: ڇڃ ڇ ڇڇ ڃ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈڇ(3) فالاختلاف:"أريد به اختلاف بعضه مع بعض واضطرابه ,ويحتمل أنه أُرِيدَ به اختلافه مع أحوالهم ,أي لوجدوا فيه اختلافا بين ما يذكره من أحوالهم وبين الواقع ,فليكتفوا بذلك في العلم بأنه من عند الله"(4).

وأما دلالته الاصطلاحية فإن الناظر في المصادر البلاغية لا يكاد يظفر بتعريف محدد يتفق عليه البلاغيون, فمنهم من أشار إليه شارحا مفهومه اللغوي عن طريق الاستشهاد,ومنهم من أتى بالأمثلة دون أن يحدد دلالته الاصطلاحية, إلا إشارات مقتضبة تضمنت دلالته الاصطلاحية التي لم تختلف عن دلالته اللغوية كثيرا ,من ذلك بيان الجاحظ (255هـ) في قوله واصفا الأسلوب الذي يتوفر فيه عنصر التناسب:"لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ,ولكل ضرب من المعاني نوع من الأسماء ,فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل والإفصاح في موضع الإفصاح والكناية في موضع الكناية, والإرسال في موضع الاسترسال"(5) وواضح من هذا القول إن صاحبه يشير إلى القاعدة البلاغية التي اقتضت أن لكل مقام مقالا أو ما عرف بمقتضى الحال ,وهو أحد أنواع التناسب المتمثل بتناسب النص مع الواقع الذي يُنشأ فيه,فالبليغ عليم بما يريد قوله وفي أي مناسبة يلقيه ,وأراد الجاحظ هنا المعنى العام للتناسب وهو أحد أوجه التناسب.

ومصطلح التناسب عند ابن طباطبا العلوي(322هـ) يعني"ملائمة معاني الشعر لمبانيه " (6) والملائمة هنا تمثل وجها من وجوه التناسب,فمناسبة المعاني للألفاظ المعاني للألفاظ واحدة من عدة مناسبات في النص المبدع ,وكتاب الله

---

(2) ينظر: لسان العرب,ابن منظور:118/14.

(3) سورة النساء, الآية 82.

(4) التحرير والتنوير, محمد الطاهر بن عاشور:138/5.

(5) الحيوان ,الجاحظ:39/3.

(6) عيار الشعر/125.

تعالى فوق كل أنواع الكلام من المنظوم والمنثور ,وكأن في كلامه السابق يلخص مقال الجاحظ في هذا الخصوص.

ولم يبتعد قُدامةُ(337هـ) عن هذا المعنى إلا أنه أطلق عليه ائتلاف اللفظ والمعنى, وهو عنده المساواة والإشارة والإرداف والتمثيل والمطابق والمجانس (7) وأراد في حديثه عن هذه الفنون أن المتكلم يجب أن يكون على علم بمناسبتها,فيوجز عندما يتطلب الموقف إيجازا ويُشّبه في موقف التوضيح والتبيين, ويلجأ إلى التجنيس عندما يقتضي المعنى المجانسة.

وفضلا عن هذا فإن قدامة أطلق مصطلح الائتلاف , ودلالته اللغوية هي التناسب, وأراد به مناسبة اللفظ للمعنى الذي يتضمنه.

ويمثل التناسب عند التنوخي(384هـ) نوعا من أنواع البيان ,إذ قال:"ومن البيان التناسب وهو في الألفاظ وفي المعاني, وأكثر ما يحتاج إليه في الألفاظ , لأن المعاني التي تطلب لا يلزم فيها ترتيب ولا مناسبة فإن المتكلم قد يفتقر إلى ذكر الأشياء المتناقضة والمتضادة والمتغايرة والمتنافرة وحيث لا يفتقر إلى شيء من ذلك فهو تناسب" (8) ,ومراده بالبيان البلاغة وكأنه يصف براعة المنشئ في نظمه وخلو كلامه مما يخرجه عن وصف البلاغة والبراعة والبيان وهي المناقضة والتضاد والتغاير والتنافر, وهي من وجوه الكلام المختلف غير المتلائم أو المتناسب في أجزائه.

ونراه ميز بين الألفاظ والمعاني , ولعله في هذه النقطة من أنصار اللفظ , وإلا فقد مر أن المعاني الشريفة تحتاج إلى ألفاظ مناسبة لها.

ولعل كلام النويري(733هـ) على مصطلح التناسب يمثل التعريف الناضج والرؤية الواضحة التي أعطتنا معالم المصطلح ,فالتناسب عنده "ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر" (9), ومما يلفت النظر في هذا التحديد وصفه

---

(7) ينظر: نقد الشعر/153-162.

(8) الأقصى القريب في علم البيان/92.

(9) نهاية الإرب في فنون الأدب 7:/107 , وينظر:حسن التوسل إلى صناعة الترسل ,شهاب محمود الحلبي/212.

المعاني بالمتآخية المتلائمة, وهي صفة توحي بخلوها مما يعتريها من صفات تخرجها عن طبقة البلاغة , ونراه أغفل ذكر الألفاظ , وهذا الإغفال متعمد ومقصود, إذ إن المعاني هي التي تتطلب الألفاظ ,وكثيرا ما نرى من أهل البلاغة من يشير إلى مصطلح المعاني ويريد به التراكيب (10), على اعتبار أن بناء الكلام يحتاج إلى ركنين هما المفردات والمعاني المراد توصيلها,وعن طريق تأليف المفردات المحكوم بقواعد النحو وأصول النظم يتألف المعنى الكلي للتركيب.

ومعلوم أن تركيب الكلام عملية معقدة تحتاج إلى مضمون ينضجه المبدع في ذهنه ليبحث عن التركيب المناسب ,وهو ما عناه عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن النظم(11), ومما تجدر الإشارة في هذا المقام أن كل من تحدث عن هذا المصطلح لم يخرج عن معنى التلاؤم والتشابه في وصفه للكلام المتناسبة أجزاؤه ,إلا أن منهم من استعمل مصطلح التلاؤم بدلا من التناسب(12).

وهو من حيث اللغة والاصطلاح أيضا عين مصطلح التناسب (13), ومنهم من سماه تشابها(14), ليشير به إلى نقيض التباين والاختلاف.

وما يميل إليه البحث هو مصطلح التناسب , وهو مصطلح وصفي أكثر من كونه معيارياً , فهو يوحي بخصائص جمالية يتصف بها النص المبدع الذي تظهر أجزاؤه في أذن السامع وعين القارئ متناسقة متلائمة بعض معانيه يتطلب بعضها, وتتداعى تراكيبه بعضها إثر بعض, ووجدنا ذلك في بعض ما أثر عن الأعراب عند سماعه آيات الله ﷻ وبعض الصحابة ﵃.

من ذلك أن زيد بن ثابت كان يكتب ما يملي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى **ﭽ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮈ ﮉ**

---

(10) ينظر:سر الفصاحة , ابن سنان الخفاجي/ 90.

(11) ينظر:دلائل الإعجاز/48.

(12) ينظر:النكت في إعجاز القرآن,علي بن عيسى الرماني/87–88.

(13) ينظر: لسان العرب:211/12–212.

(14) ينظر:الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان, ابن القيم/87.

ۀ ۀ ه ہ ۂ ۂ ھ ه ه ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭڭچ فقال معا ذ بن جبل رضي الله عنه: فتبارك أحسن الخالقين ,فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال معاذ:ممَّ تضحك يا رسول الله؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بها ختمت(15).

فلولا سمة التناسب في المعاني التي يتصف كتاب الله ﷻ لما علم معاذ بذائقته اللغوية وحدسه المرهف المعنى الذي ستختتم به الآية, ولذلك يجب علينا أن نحصر هذه الصفة من المناسبة والتلاؤم بكتاب الله ﷻ و حده المعجز, وهذا لا يعني أن كلام البشر خال من صفة التناسب, ولكن كتاب الله شأنه أوحد في الوصف.

ومن جميل ما قرأناه عند البلاغيين في بحثهم: مصطلح مراعاة النظير(16), ويشير إلى وجوب أن يراعي المنشئ في نصه المعنى وما يؤاخيه من معاني يتطلبها السياق والمضمون الذي يتحدث عنه, ولهذا وصفوه بالنظير, والنظير في اللغة كل ما يشابه أو يشاكل نظيره حتى كأنهما توأمان(17), وقد تكون المشابهة من حيث الوصف العام فالمعاني الرقيقة تتطلب ألفاظاً وتراكيب رقيقة هادئة تحس بها النفس ولا تستطيع وصفها, بل تجد أثرها وتستمتع به... وهكذا في أنواع المعاني الأخرى, ولا نبالغ إذا قلنا إن التعبير القرآني راعى في جانبي المضمون والتركيب الصوت المنفرد من حيث الجهر والهمس والشدة والرخاوة..., وكل هذا من وجوه التناسب والتلاؤم.

ومن المهم القول في الحديث عن التناسب الإشارة إلى نقطتين:

الأولى: إن البلاغيين لم يتفقوا على مصطلح واحد في وصف هذا الجانب الفني في النص, بل وجدناهم يوظفون مصطلحات أخر كالتلاؤم ومراعاة النظير

---

(15) ينظر:التفسير الكبير,الرازي:171/11, والتعبير الفني , بكري شيخ أمين/205.

(16) ينظر:الإيضاح في علوم البلاغة , القزويني:343/2,والمطول ,سعد الدين التفتازاني/656 , وخزانة الأدب وغاية الأرب,الحموي/ 131, وأنوار الربيع,ابن معصوم المدني: 119/3, ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها,د.أحمد مطلوب:243/3–244.

(17) ينظر: لسان العرب:194/14–195.

وتشابه الأطراف والتوفيق والائتلاف, وقد آثر البحث استعمال مصطلح التناسب لأنه أوسع دلالة ويشمل التلاؤم وغيره في الوصف, فكل كلام متناسب في أجزائه يصح فيه التلاؤم, ومراعاة معانيه لنظائره, والمراد بتشابه الأطراف "أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى" (18) وهو نوع من مؤاخاة المعاني بعضها لبعض , فالمعنى يطلب المعنى ويقتضيه, فيظهر السياق في وجه متناسب من حيث مبانيه ومعانيه, ويمثل أيضا أحد أوجه التناسب المتعددة, ودلالة التوفيق اللغوية تدل على ملائمة الشيئيين حتى يظهرا منسجمين ومتناسبين(19), وهي عين الدلالة الاصطلاحية, إذ قالوا في التوفيق: هو الائتلاف والتناسب ومراعاة النظير(20).

الثانية :إن مصطلح التناسب وصفي يتضمن توصيفا لجانب جمالي في النص ولاسيما النص القرآنيَّ المعجز,وهو لا يشير إلى فن بلاغي بعينه، بل تدخل تحته كل عناصر التعبير البلاغي من معان وبيان وبديع فضلا عن جوانب أخر تتعلق بالصوت والمعنى.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا ذهبنا إلى أن مصطلح التناسب في دلالته الوصفية يقترب من الفصاحة والبلاغة والبيان,بل تمثل هذه أوجها من وجوه التناسب, فالبلاغيون في حديثهم عن المصطلحات السابقة وضعوا شروطا استنبطوها من خلال معاناتهم مع النصوص اللغوية, ورأوا أن الكلام الذي تنطبق عليه هذه الشروط يدخل ضمن دائرتي البلاغة والبلاغة والفصاحة, ومن هذه الشروط التلاؤم بمعناه العام من حيث التركيب والمعنى والصوت المفرد, وإذا نظرنا إلى هذه الشروط وجدناها تمثل أوجها من أوجه التناسب.

ومن المفيد التنبيه إلى أن مفهوم التلاؤم والمصطلحات المناظرة له أو المقتربة منه دلاليا لم يفرد لها البلاغيون مبحثا خاصا كما في معظم المصطلحات البلاغية الأخرى, بل جاءت مبثوثة في أبواب البلاغة الأُخَر ك بحوث الفصل والوصل، أو ضمن بحوثٍ البديع، مع كونه ا جديرة بأن تفرز ببحثٍ مستقلٍّ،

---

(18) الإيضاح في علوم البلاغة:2/344–345.

(19) ينظر: مقاييس اللغة/1060.

(20) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 2/393.

وكانت لهم حوله ا عبارات، ونظرات عامّات لم تُحَدَّدْ فيها أقسامٌ ولا عناصر متفاصلة، بسبب أنّ التلاؤمَ وعدَمَ التلاؤم بين المعاني قضيَّةٌ جمالية فكريّة، والبحث فيها مائجٌ رَجْراجٌ لا حصر لصوره، والبحث فيه كالبحث في صُوَرِ أمواج البحر، وكالبحث في صُورِ حركات السُّحُب وتشكيلاتها المتنوعات الناتجات عن تقاربها وتباعدها، واجتماعها وافتراقها، مع اختلاف ألوانها وكثافاتها في الأبعاد الثلاثة: "الطول والعرض والْعُمْق(21).

زد على ذلك تعدد المصطلحات بل تداخلها مع التناسب أو التلاؤم كما نوهّنا إلى ذلك في مستهل البحث , وفي هذا نوع من الإشكال وقد حاول البحث توضيحه وتجاوزه , وكأن البلاغيين حكموا ذوقهم وكيفية إدراكهم لهذا العنصر الجمالي من اللغة فحاولوا توصيفه من الزاوية المنظورة لديهم.

ولعل في ذلك ثراء معرفيا ونوعا من الشمولية في النظر والمعالجة وإن كان في ظاهره مشكل , ولذلك فقد جاءت تنظيراتهم شاملة لكل جوانب البناء اللغوي وعناصره , ولمسنا ذلك في معالجتهم البحثية المتعلقة بالنص القرآني.

التناسب في سورة محمد(ﷺ)

مدخل...

إن الناظر في القرآن الكريم والباحث في أجزائه يجد سمة "التناسب "متجلية خير تجل, وتمثل وجهاً من وجوه الإعجاز غير المنتهية, ولو تدبرنا ألفاظ القرآن الكريم في نظمها لرأينا حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الأصوات (22), فإذا أخذت أي معنى من المعاني القرآنية, وحاولت تحليله وربطه بالتراكيب المتضمنة له, بل والأصوات المؤلفة لمفرداته لوجدت تناسباً عجيباً يأخذ اللب ويأسر الفؤاد ليقول لك إن هذا الكلام ليس كلام بشر (23), بل ﭽ ﮒ ﮞ ﮞ ﮠ ﭼ(24).

---

(21) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها , عبد الرحمن الميداني:551/1.

(22) ينظر:إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ,مصطفى صادق الرافعي/226-227.

(23) ينظر:تناسق الدرر في تناسب السور , جلال الدين السيوطي/ 65-70.

(24) سورة فصلت , من الآية 42.

والتناسب في سورة محمد ﷺ عينة تقرب لنا هذه السمة الجمالية والقيمة التعبيرية في القرآن الكريم كله, وقد عرفنا في بيان دلالة التناسب كونه يمثل الوصف النهائي لتوظيف فنون البلاغة وأساليب النظم في اللغة واختيار المعاني المرادة, حتى يظهر النص المعني في وجه جمالي متناسق من حيث المضمون والشكل أي المعاني والتراكيب, وإذا ما أمعنت النظر فيه متأملاً لأخذتك الحيرة في أي من معانيه أو تراكيبه يطلب بعضها بعضا فلا تستطيع أن تفضل بينهما, وقد يقال هذا في كلام البشر , فكيف الحال بكلام الله ﷻ المعجز من كل نواحيه؟ فهو چڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڨ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇچ چ(25) ونلحظ في وصف الله ﷻ كتابه أنه صدر بكلمة " ڤ", ومما توحي به هذه الصفة جماع وصف الحسن الذي استغرقه كتاب الله تعالى, ولذلك أكمل هذا الوصف بقوله:(ڦ) أي "متشابهة أجزاؤه متماثلة في فصاحة ألفاظها وشرف معانيها, فهي متكافئة في الشرف والحسن" (26), ولذلك فقد تحدى الله تعالى به الكافرين فقال: چڇ چ چڇ ڇ چ چ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈچ(27).

وعوداً إلى بدء فنقول: إن في سورة محمد صلى الله عليه وسلم بوصفها موضوع البحث تتجلى وجوه عديدة من أنواع التناسب بدءاً من موقع السورة في المصحف بين سورتي الأحقاف والفتح, ومروراً بأسماء السورة وهي سورة محمد ﷺ , وسورة القتال, وسورة الذين كفروا, وفضلاً عن هذا, التناسب بين مطلع السورة وخاتمتها, والتناسب الذي يتجلى بين معاني السورة التي عالجتها,علاوة على التناسب بين تراكيب السورة أو التناسب التركيبي.

وسنحاول في هذا البحث أن نفصل القول في كل هذه الأنواع من التناسب, وسنسلك منهج الرؤية الكلية للسورة موظفين في تجلية هذه الرؤية ما اعتمده البيان القرآني من فنون القول وأساليب النظم بوصفها وسائل تعبيرية تشكل في مجموعها الصورة الكلية التي هدف التعبير القرآني إلى إظهارها من وراء

---

(25) سورة الزمر ,من الآية 23.

(26) التحرير والتنوير :385/23.

(27) سورة النساء ,الآية 82.

توظيفه لتلك الفنون والأساليب. ومن المعروف أن الفنون البلاغية والأساليب النظمية ليست مقصودة لذاتها ,كما نجد عند المتبارين من الشعراء والأدباء الذين يرومون إظهار براعتهم في التفنن في استعمال أساليب البيان وأفانين النظم.

بل إن التعبير القرآني بوصفه الطبقة العليا من الكلام المعجز أتاح للأدباء والشعراء السبل المثلى التي يمكن من خلالها بناء أجمل الصور وأبدع الأساليب , فطرائق تعبيره التي استعانت بفنون القول وأساليب البيان أتت بها غير متكلفة , وتشكل جزءا واحدا لايمكن للقارئ أن يفصل بين مكوناته التركيبية والمعنوية الدلالية, كما نجد عند قسم من الشعراء الذين تكلفوا فنون البيان من استعارة ومجاز حتى جاءت في قسم منها متوعرة صعبة تحتاج إلى تأويل بعيد.

المبحث الأول:التناسب في موقع السورة:

جاءت سورة محمد صلى الله عليه وسلم بين سورتي الأحقاف والفتح, ونظرة فاحصة في سورة الأحقاف نجدها قد أشبهت سورة محمد صلى الله عليه وسلم موضوع البحث في كثير من الجوانب , فهذه السورة استهلت بالحديث عن القرآن الكريم بوصفه كتابا منزلا(28), وتحدثت عن الكافرين وما أشركوا به ومصير عبادتهم وأعمالهم(29), وعن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأحقية هذه الرسالة وعاقبة من يعرض عنها (30), ومن مضامينها الأخرى حديثها عن المؤمنين وتوصيفهم (31), ومما يلحظ على أسلوبها اعتمادها أسلوب التقابل في ذكرها المؤمنين والكافرين(32), ومن أوجه التشابه أيضا استرسال السورة في حديثها عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته عن طريق ذكر قصة سماع الجن له (33), وهذا الأسلوب مقصود ليمهد لسورة محمد صلى الله عليه وسلم, بدليل

---

(28) ينظر: سورة الأحقاف , الآية 2.

(29) ينظر: سورة الأحقاف , الآيات 4-7.

(30) ينظر: سورة الأحقاف , الآيات 8-10.

(31) ينظر: سورة الأحقاف , الآيات 13-16.

(32) ينظر: سورة الأحقاف, الآيات 13-16, ويقابلها الحديث عن الكافرين الآيات 17-22.

(33) ينظر: سورة الأحقاف ,الآيات 29 -32.

ذكرها هلاك القوم الفاسقين(34) وهم الكفار الذين سيكتمل وصفهم في سورة محمد صلى الله عليه وسلم(35).

وإذا تأملنا في هذه المضامين وجدنا السورة موضوع البحث قد تحدثت عنها أيضا عبر أسلوب زيادة التوضيح وذكر تفاصيل أخرى مثلت مع ما قبلها الوصف النهائي.

وأما سورة الفتح فإنها من حيث المضمون أكملت ما ورد في السورتين اللتين قبلها, إذ بينت عاقبة الرسالة المحمدية المباركة الغالبة وهي النصر النهائي المؤزر العزيز على أعداء التوحيد (36) ومن جانب آخر تحدثت عن مصير المؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله وثبتوا معه في نصرتهم (37) وعن طريق أسلوب التقابل أيضا بينت مآل المنافقين والكافرين المعرضين عن الله سبحانه ورسولِه صلى الله عليه وسلم(38), ومن أوجه التناسب بين هذه السورة وسورة محمد صلى الله عليه وسلم ذكر جانب معين من القتال وهو ما جرى يوم الفتح (39), فذكر القتال في السورتين كلتيهما هو وجه من وجوه التناسب, بل جاء ذكر القتال وما سيؤول إليه في سورة الفتح مكملا لذكره في سورة محمد صلى الله عليه وسلم أو سورة القتال.

وختمت هذه السورة أيضا بذكر النصر النهائي الذي بُشِّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقابل به هزيمة الكفارالتي ذكرت في سورة محمد صلى الله عليه وسلم بوصفها وجها من وجوه النصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم, قال تعالى: **ﭽ ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئى ئې ئى ئې ئى ئى ئى ى ى ﯿ ئج ئح**

---

(34) ينظر: سورة الأحقاف ,الآية 35.

(35) ينظر: التفسير الكبير , الرازي: 32/28, ونظم الدرر في تناسب الأسماء والسُّور, البقاعي:149/7.

(36) ينظر: سورة الفتح , الآيات 1-3.

(37) ينظر: سورة الفتح ,الآيات 4–5.

(38) ينظر: سورة الفتح , الآيات , 11,6, 12, 13, 14, 15, 16.

(39) ينظر: سورة الفتح , 20–25.

ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخﮊ(40) ونستطيع بعد ذلك أن نلمح وجها آخر من وجوه التناسب بين اسم سورة محمد صلى الله عليه وسلم واسمها الآخر"سورة القتال",على اعتبار أن البيان القرآني ذكر لفظ القتال وطرائقه في الحرب كما سنوضحه في موضعه , ولما أراد التعبير القرآني إتمام وصف القتال ذكر بعده لفظة الفتح بوصفه اسما للسورة التي بعد سورة القتال , لأنه النتيجة النهائية التي سيفضي إليها القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى وهي الفتح المبين الذي مثل انهيارا لآخر معاقل الشرك في جزيرة العرب وبدءا لمرحلة إسقاط رموز الوثنية في أطراف الجزيرة وما جاورها من دول الشرك والوثنية. (41)

المبحث الثاني: التناسب بين أسماء السورة ومضمونها:

من المفيد في هذا المقام التنبيه إلى قضية مهمة من القضايا المتعلقة بمفهوم بناء النص المبدع الذي تظهر فيه عبقرية منشئه من حيث اختيار عنوان نصه ليوحي بمضمون ذلك النص, وأضحت مسألة اختيار العنوان من المسائل التي أولاها النقاد أهمية كبرى وهي مسألة معقدة, وتمثل وجها من أوجه القيم الجمالية في النص, ذلك أن العنوان يختزل في دلالته أفكار النص ومضامينه عن طريق الإيحاء الدلالي, وكلما كان ألصق بالمضامين والأفكار التي يعنى بها النص كان أقرب إلى الإبداع وإلى الوحدة غير القابلة للتجزئة, إنه وسيلة مبدع النص لإثارة دوافع الاستجابة لدى المتلقي , وهذا يقال في النص البشري.

أما القرآن الكريم فله شأن آخر, ومن المعروف أن سوره الكريمة سميت بأسمائها لأسباب متنوعة, منها كون الاسم ذكر في السورة, أو أنه له علاقة بمحاور عالجتها السورة, فجاء الاسم ليوجز هذه المحاور, ولذلك فلا نجانب الصواب إذا اعتقدنا أن القرآن الكريم ارتقى بلغة الأدباء وألهمهم بأساليبه المعجزة في النظم والتركيب.

---

(40) سورة محمد, الآيتان 10, 11, وينظر: التفسير الكبير:67/28.

(41) ينظر: نظم الدرر:185/7.

وقد ذكر المفسرون ثلاثة أسماء للسورة , وهي سورة "محمد "صلى الله عليه وسلم , وسورة "القتال "وسورة "الذين كفروا ", وأشهر أسمائها هو سورة "محمد "صلى الله عليه وسلم , وهو المثبت في المصحف(42).

فأما تسميتها بسورة "محمد "صلى الله عليه وسلم فلأنها ذكر فيها اسم رسول الله "محمد "صلى الله عليه وسلم(43), وقد استهلت به (44), وفضلا عن ذلك فإن السورة في جميع محاورها جاءت مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبضمائر مختلفة و منها الكاف في ((قريتكَ, أخرجتْكَ, إليكَ, عندكَ, لأريناكَهُمْ)) وبضمير الغَيبة في ((ماذا قال آنفا)) وضمير المخاطب المستتر في قولِهِ تعالى ((فاعلمْ , استغفِرْ))(45).

وفي محور آخر تحدثت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وفي أكثر من موضع, ومنها قوله تعالى **چڈ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ ڇ ڇ ڇ چ**(46) , وقوله تعالى **چڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈچ**(47) , ولهذا فإن هذا الاسم اشتُهِر لهذه السورة أكثر من الاسمين الآخرين , والسبب ظاهر , إذ إن في معظم محاورها صرحت بذكره صلى الله عليه وسلم أو عن طريق التكنية عن اسمه بالضمائر, ومراد القرآن الكريم من ذلك وجوب طاعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم, وبيان عظمته وشرفه , فهو وسيلة العباد إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما وجه تسميتها بسورة القتال فإنها جاءت بمثابة إعلان القتال الذي لا هوادة فيه على الكافرين الذين أعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن دعوته **چڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ**

---

(42) ينظر: التحرير والتنوير:71/26.

(43) ينظر: التحرير والتنوير: 71/26.

(44) ينظر: سورة محمد, الآية2.

(45) ينظر: سورة محمد, الآيات 13, 16, 19, 20, 30.

(46) سورة محمد , الآية 32.

(47) سورة محمد , الآية 33.

ﮔﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩﭼ(48), ومن ذلك أيضا قوله تعالى ﭽ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰﭼ(49) , بل إن الخطاب القرآني تصاعد ليصرح بذكر القتال والدعوة إليه فقال تعالى ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩﭼ(50).

وفي سياق آخر ذَكَر نوعا من القتل الذي سيصيب الكافرين لحظة موتهم , قال تعالى ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚﭼ(51), وكأن هذا الضرب الواقع على الكافرين مكمل للضرب الذي دعا الله إليه المؤمنين عند لقائهم الكفار في سوح الجهاد , قال تعالى ﭽ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐﭼ (52) وبذلك يكون الضرب قد شمل الرقاب والوجوه والأدبار, وهو الغاية في الذلة والصغار والعذاب.

ومن أسمائها أيضا سورة "الذين كفروا ", والأمر ظاهر لسبب تسميتها بهذا الاسم, إذ بُدِئت بقول الله تعالى ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘﭼ(53) وفيه تحريض للمؤمنين على قتال الذين كفروا لأنهم أشركوا بالله وصدوا عن سبيله, وقد أعلم الله تعالى المؤمنين لا يسدد المشركين في أعمالهم, وأنه مصلح أمر المؤمنين فكان ذلك كفالة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم, وليس هذا فحسب بل تحدثت عن الذين كفروا في أكثر من موضع, منها قوله تعالى : ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲﭼ(54) وقوله تعالى: ﭽ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝﭼ(55), ويمكن أن يقال: إن حديثها عن الكافرين بصيغة وصفهم بالاسم الموصول "ﭑ ﭒ "ﯙ"ﯿ"تناول عدة

---

(48) سورة محمد , الآية 4.

(49) سورة محمد , الآية 10.

(50) سورة محمد , الآية 20.

(51) سورة محمد , الآية 27.

(52) سورة محمد , من الآية 4.

(53) سورة محمد , الآية 1.

(54) سورة محمد , من الآية 3.

(55) سورة محمد من الآية 8.

مضامين وهي وصف الكافرين وعاقبة أعمالهم وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم منهم, ومصيرهم في الدنيا والآخرة, وذلك فلا جرم في تسميتها بهذا الاسم إذ استحوذ الحديث عنه محاور غير قليلة من السورة, ومثل نوعاً من التناسب عن طريق أسلوب التقابل, وهو هدف من أهداف هذه السورة الكريمة.

وهكذا فقد رأينا التعبير القرآني جسد وظيفة اسم السورة بوصفه يمثل نوعاً من المنبهات تشد القارئ والسامع للنص القرآني من حيث المضمون واللغة.

المبحث الثالث: التناسب بين مضامين السورة:

إذا تأملنا في مضمون السورة موضوع البحث وجدناها تعرض صورة كلية للإيمان ومتعلقاته, والكفر ولوازمه, وهما محوران سار عليهما التعبير القرآني في السورة وبشكل متواز في حديثه عنهما.

وعند تلمسنا وجوه التناسب بوصفه موضوع بحثنا وجدناه يتجلى في السورة كلها ,ولذلك نستطيع أن نستجلي هذه الوجوه عن طريق بيان عناصر المحورين كليهما "الإيمان والكفر ", ولعل محور الكفر أخذ مساحة أوسع من سياق السورة, ويمكن إيجاز مواضع الحديث عنه في الآيات ((**34,32,29,28,27,26,25,23,22,20,16,15,14,12,11,10,9,8,4, 3,1**)) مع التنبيه إلى أن قسما من هذه الآيات تضمن الحديث عن الإيمان أيضا وعبر أسلوب المقابلة.

والمهم من هذا كله بيان مظاهر التناسب بوصفه قيمة بلاغية جمالية , وذكرنا سابقاً مسوغات تسمية السورة بــ"ٱ ٻ "وسورة "القتال "وهنا لابد من الإشارة إلى وجه آخر من وجوه التناسب , وهو الذي يتجلى بين مضامين السورة من حيث بيانها صفات الكافرين وعلامات الكفر, وأسلوب التعامل معهم , ولهذا استُهِلَّت السورة بالحديث عن "ٱ ٻ "وهو ما عرف عند البلاغيين وعلماء المعاني بالتعريف بالاسم الموصول ,فالذين يُتحدث عنهم ليس لهم صفة يعرفون بها وأكثر جلاء من كفرهم , حتى غدا هذا الكفر علامتهم الفارقة التي تميزهم عن مَنْ سواهم , والتعريف بالاسم الموصول يقتضي أن يشار إلى من عُرِّف بهذا الاسم أنه لا يُعرَف من وصفه إلا الوصف الذي جاء صلة للاسم الموصول,

فأصبح الاسم الموصول علما على المعرف به وهو نوع من أنواع الذم في هذا السياق وتشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة , وإيماء بالموصول وصلته إلى علة وصفه بما سيأتي من أوصاف , ومن براعة استهلال للغرض المقصود (56) وكأن هذه الأوصاف جاءت لتوضح الإبهام الذي أوحى به الاسم الموصول "الذين "ومعلوم أن الأسماء الموصولة مبهمة يوضحها ما يذكر بعدها من صلة الموصول(57).

ومن أولى الصفات التي مثلت علة إضلال أعمالهم إتباعهم الباطل , قال تعالى **ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱﭼ**(58) وأول مظاهر التناسب تتراءى أمامنا تدرج السياق القرآنيُّ في حديثه عن الكافرين , فبعد وصْفِهم بالكفر وذِكْره إضلال أعمالهم عقَّب معللا ذلك بإتباعهم الباطل, ثم ختم هذا السياق بذكره مصيرهم وهو القتل بضرب رقابهم ,ونلحظ أن البيان القرآنيَّ وظَّف أسلوب التصوير الكنائيَّ للإشارة إلى الطريقة التي يجب على المؤمنين إتباعها للتعامل مع الكافريـ ن في سوح القتال وذلك في قوله **ﭽ ﮆ ﮇ ﭼ**وواضح أن المراد منه هو القتل, ولكن التعبير القرآني آثر هذا التركيب لكونه أبلغ في وجوب الأمر وأشد إيقاعا للموت في الكافرين فضلا عن كونه يحمل دلالة الذلة والصَّغار وقد قصدهما القرآن وعلاوة على ذلك فإن في هذا النوع من القتل والمقاتلة شجاعة لضارب رقبة خصمه المواجه له وتمكنه منه غاية التمكن(59), وعمق هذا المنحى الدلالي بكناية أخرى وهي قوله: **ﭽ ﮊﭼ** والمراد بالإثخان في اللغة الغلبة و الإثقال بالجراح وغيرها (60) والمقصود بها في الآية إرهاق العدو بكثرة إيقاع الجراح فيه سواء أكانت الجراح حسية أم معنوية نفسية, ولكي يستكمل التعبير القرآني هذا المشهد من المبالغة قي قتل الكافرين وإذلالهم أتى بصورة أخرى توحي بحجم الأحمال

---

(56) ينظر: التحرير والتنوير:73/26.

(57) ينظر:النحو الوافي , عباس حسن/283-284.

(58) سورة محمد , من الآية 3.

(59) ينظر: التحرير والتنوير:66/26-67.

(60) ينظر: لسان العرب:284/15-285.

والأثقال التي تنوء بكاهل المتحاربين ولاسيما المغلوبين المقهورين وتتمثل بقوله: **ﭼﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﭽ**,ويمكن حملها على المجاز العقلي أو الاستعارة المكنية ولكل توجيه جماليته, فعلى الأول المراد به أهل الحرب, والأوزار الأثقال والأحمال, وعلى الثاني فقد شُبهت الحرب بكائن ينوء بأحمال أثقلت كاهله وسينزلها بعد غاية يصير إليها (61) ولذلك لم يصرح القرآن الكريم باللفظ الصريح فيقل: أقتلوهم, بل بنى مشهد القتال من صور منسجمة واحدة تؤدي إلى الأخرى وتطلبها , ويمكن إيجاز ذلك بذكر الوصف ثم عِلَّته وأخيرا الجزاء الذي يستحقه(62).

ويمكن أن نتلمس وجها آخر وهو تكرار وصف **"ﭬ ﭭ "**في هذه المواضع الثلاثة التي مثلت مطلع السورة , وهو مقصود لذاته , إذ مثل نوعا من العلة التي تمثل إجابة لأسئلة يمكن أن تُطرح ,مفادها: لمَ هذه الغِلظةُ مع هؤلاء القوم؟ونلحظ كذلك انتهاج التعبير القرآنيّ أسلوب التكرار بذكره **"ﭬ ﭭ** "ثلاث مرات وفيه نوع من الإطناب عن طريق تكرار اللفظ بعينه,وهو تكرار مقصود تطلَّبه المعنى,واقتضته الدلالة.

ولكي تتجلى الصورة أكثر عمد البيان القرآني إلى ذكر ما يقابل "الأوصاف التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين وهي الإيمان مقابل الكفر, والإيمان بما نُزِّل على محمد صلى الله عليه وسلم مقابل الصد عن سبيل الله , وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه **ﭼ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭽ** مقابل بعض آخر ما تضمنه **ﭼ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭽ** مقابل بقية ما تضمنه **ﭼ ﭙ ﭚ ﭛ ﭽ**"(63) وقد مر بنا قول البلاغيين في بيانهم دلالة التناسب الذي عبروا عنه بمناسبة الألفاظ للمعاني المُعبِّرة عنها والإيجاز في مواطن الإيجاز والمقابلة والتمثيل و مؤاخاة المعاني في السياق الواحد, والحق أن هذه المظاهر قد تجلت في السورة موضوع البحث ,فبعد أن استُهِلت بالحديث عن الذين كفروا أطلقت البيان عبر الإطناب في ذكر أوصافهم, حتى كادت تستغرق

---

(61) ينظر:المحرر الوجيز,ابن عطية:129/6.

(62) ينظر: سورة محمد, الآيات:1 , 3 , 4.

(63) التحرير والتنوير:74/26.

جمعيها ابتداءً من الحكم عليهم بالكفر وذكر علته وجزائهم المناسب لوقاحتهم مع الله تعالى ,ومن مظاهر الإطناب في السورة ذكر وجوب شدة بأس المؤمنين عليهم في الحرب , وتكرار وصفهم بالذين كفروا وإضلال أعمالهم, وتكرار علة هذه الشدة وهو كرههم ما أنزل الله تعالى (64), ولكي يؤكد القرآن الكريم هذا المصير ذكَّرهم عبر أسلوب الاستفهام التقريري بعاقبة الكافرين أمثالهم(65) وبلاغة التقرير في هذا الموضع توحي بأن المخاطبين في قرارة نفوسهم المتكبرة كانوا عارفين ومقرين بمصائر الأقوام التي أبيدت لكفرها ,ولكي لا نبتعد عن موضوع التناسب لابد من بيانه في هذا الموضع , ويتمثل في اكتمال الأوصاف التي أعطتنا نموذجا لا لبس فيه للكافرين في كل زمان ومكان, وإن تبدلت ألسنتهم وألوانهم , وكل ذلك تجسيد لتطابق اسم السورة "سورة الذين كفروا"مع مضمونها وهو ما نبحث عنه في عملنا.

ولكي تتضح صورة الكافرين أتى التعبير القرآنيُّ عبر أسلوب التقابل بأوصاف المؤمنين , فالقتال في سبيل الله يستلزم تضحية بالنفس , ولذلك ذكر البيان القرآنيُّ مصير المؤمنين المقتولين في سبيل الله, وهو دخولهم الجنة التي عرفها لهم (66).

وهذا كله نوع من التناسب في السورة , وكأننا نرى مشهدين متقابلين متضادين, الأول: مشهد الكافرين, والثاني مشهد المؤمنين, ومما يلفت النظر في سياق السورة تكرار اسم الإشارة "ذلك "في أربعة مواضع وذلك لـ"تمييز المشار إليه أكمل تمييز تنويها به" (67) وهو نوع من الإطناب, إذ نلمح تكرار المعنى أو ما يقاربه بعد ذكر اسم الإشارة "ذلك"(68), ومنه قوله تعالى: **ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﭼ**(69) وقوله تعالى : **ﭽ ﭑ ﭒ**

---

(64) ينظر: سورة محمد ,الآيات:4, 8, 9.

(65) ينظر: سورة محمد , الآية:10.

(66) الآيات:4, 5, 6.

(67) التحرير والتنوير:76/26.

(68) ينظر:سورة محمد, الآيات3, 9, 11, 26.

(69) سورة محمد, الآية:3.

ر ﻫ ئا ئا ئە ئەچ(70) وقوله تعالى: چ ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخچ(71) ومعلوم أن إتباع الباطل يستلزم بالضرورة كراهية الحق المنزل من عند الله تعالى, وكلاهما يقتضي الخذلان المترتب على عدم مولاة الله للكافرين, واعتمد التعبير القرآني تقنية الاستعارة التمثيلية في تصويره الكفر: چ ج ج چ و چ ر ﻫ ئا ئا چوهما كناية عن صفة الكفر, وقوله :چ بى بي تج تح تخ چكناية عن الخذلان والهزيمة.

وفي الصورة المقابلة إتباع الحق يقتضي حب ما أنزل الله الذي يترتب عليه موالاة الله لمن اتصف بهذه الصفة,وهي صورة مبنية على التعبير الكنائي وهو نوع من التناسب ظاهر بين جزء من مضامين السورة.

وهكذا تتلاحق مظاهر التناسب , ومنها ما نجده في حديث السورة عن مصير المؤمنين ومصير الكافرين, فبعد أن حكمت في مستهلها على خسران الكافرين وفوز المؤمنين , جلت جزءا من مظاهر الفوز ولوازم الخسران , قال تعالى: چڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۋ چ(72), وقابلها في توصيفه الكافرين عملا وجزاءً ومصيرا فقال: چۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ې ې ر ﻫ ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئې ئى ئى ئى ی ی ی ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تمچ(73) نراها فصلت في ذكر صور النعيم التي قابلتها صور العذاب والجحيم، قال تعالى چ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ چ(74)، وهي صورة مجملة لم تفصل في ذكر الأوصاف، ولكي تتضح هذه الصورة رأينا التعبير القرآني فصل في

---

(70) سورة محمد, الآية:9.

(71) سورة محمد, الآية: 11.

(72) سورة محمد,الآيات:4, 5, 6, 7.

(73) سورة محمد,الآيات:8, 9, 10, 11.

(74) سورة محمد, من الآية:12.

موضع آخر وعبر أسلوب الأطناب في ذكر نعيم الجنة، قال تعالى ﭽ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﭼ(75)، والغاية المتوخاة من هذا الوصف الخبري الذي اعتمد أسلوب التفصيل هي الحث على إتباع الحق والوعد والبشارة لمن سلك سبيل المؤمنين واتصف بأوصافهم التي قررها البيان القرآني في مستهل السورة ولذلك بُنِيت الآية في خاتمتها على أسلوب تقديم ماحقه التأخير: ﭽ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﭼ وهذا التقديم مُشْعِرٌ بدلالة الاختصاص, فالنعيم الموصوف للمؤمنين وحدهم المذكورين في السياق.

ومقابل هذه الصورة ثمة صورة أخرى مغايرة وهي مشهد الكافرين المعذبين ووسيلة تعذيبهم، فبعد أن ذُكِرَ الكافرون بصيغة الدعاء عليهم ﭽ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﭼ(76)، نجد السياق يكمل هذا المعنى ويحققه إجابة لهذه الدعوة عليهم ﭽ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﭼ(77)، ومن دلالات ذلك وقوع ﭽ ﯚ ﯛ ﭼ في جانب الكفار في مقابلة قوله للمؤمنينﭽ ﯓ ﯔ ﭼ(78) زد على ذلك أن قوله تعالى ﭽ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﭼ، لازم المعنى الذي قصده التعبير القرآني ﭽ ﯚ ﯛ ﭼ، إذ إن هذه التعاسة ستلازمهم في الحياة الدنيا والآخرة وهو جزء أيضاً من إضلال أعمالهم، فمهما يفعلوا من خير فلن يجدي لهم نفعاً، وهذه غاية التعاسة,ومن بديع التعبير القرآنيِّ اعتماده الصورة التشبيهيَّة المنفية في: ﭽ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﭼ فشتان مابين الحالين كما قال تعالى: ﭽ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﭼ(79),

ولكي يكمل البيان القرآني أوصاف ﭽ ﭑ ﭒ ﭼ أتى إلى ذكر صفة أخرى من صفاتهم، وهي عدم انتفاعهم بما يسمعون من رسول الله ﷺ من آيات الله

---

(75) سورة محمد, من الآية:15.

(76) سورة محمد, من الآية:8.

(77) سورة محمد, من الآية:15.

(78) التحرير والتنوير:84/26.

(79) سورة القلم, الآيات 34-36.

والحكمة، أو عدم سماعهم سماع وعي وتدبر يفيد صاحبه، ويدخل تحتهم المنافقون أيضا(80)، ولكن أين موضع التناسب الذي نبحث عنه في هذا السياق؟ والحق أنه يتجلى من خلال موضع هذه الآية (81) في سياقها إذ جاءت متممة لصفة يحتاجها القارئ وهي جزء من مجموعة صفات (ٱ ٻ)، بل جاء قوله تعالى **ﭽ ﮌ ﮧ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯﭼ** (82) بمثابة إجابة لسؤال مثار أو يفترض أن يثار لبيان علة كفرهم وإضلال أعمالهم وصدودهم عن سبيل الله، ويمثل قمة المناسبة في سياق مكتمل الأجزاء، وثمة صفة أخرى للذين كفروا وهم هنا المنافقون في قوله تعالى **ﭽ ﭙ ﭘ ﭗ ﭖ ﭞ ﭝ ﭜ ﭛ ﭢ ﭡ ﭠ ﭟ ﭦ ﭥ ﭤ ﭣ ﭪ ﭫﭼ**(83)، فأولئك علاوة على عدم سماعهم سماع وعي وانتفاع اتصفوا بالجبن والخور الذي يجعل صاحبه كمن بدت عليه أمارات الموت(84).

ومما يلفت النظر في سياق وصف الكافرين تكرار أسم الإشارة **(أولئك)** في قوله تعالى **ﭽ ﮌ ﮧ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯﭼ**(85)وقوله **ﭽ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏﭼ**(86)، والموضعان كلاهما مثل علة لصفتين من صفات الكافرين، الأولى عدم سماعهم سمع تدبُّر وتفُّهم، والثانية إفسادهم في الأرض وتقطيع أرحامهم،

وحقيقة الطبع: "إحكام الغلق بجعل طين ونحوه على سد المغلوق بحيث لا يُنفذُ إليه فَيُستخرجُ ما فيه إلا بعد إزالة ذلك الشيء المطبوع به، وقد يسمون على ذلك الغلق بسمة تترك رسما في ذلك المجعول، وتسمى الآلة الواسمة طابعا بفتح الباء

---

(80) ينظر: التفسير الكبير:50/28.

(81) ينظر: سورة محمد, الآية:16.

(82) سورة محمد, من الآية:16.

(83) سورة محمد, من الآية:20.

(84) ينظر: نظم الدرر: 167/7.

(85) سورة محمد, الآية:16.

(86) سورة محمد, الآية:23.

فهو يرادف الختم"(87) وبهذا الطبع فقد چڑ ڑ ڑ ک ککچ, وهذا التركيب مبني على صورة استعارية تعبر عن حال من لا ينتفع من القرآن الكريم فشأنه شأن من لا يدرك ما يلقى إليه من أقوال ولا يبصر ما حوله لعاهة عطلت سمعه وبصيرته عن وظيفتهما, ولذلك وجدنا التعبير لقرآني يختتم هذا السياق بآية حكمت عليهم بعدم اهتدائهم إلى النور المنزل على رسول الله ﷺ، فقال تعالى چک گ گ گ گ ڳ ڳچ(88)، والاستفهام في الآية خرج إلى معنى الأمر أي فهلا يتدبرون القرآن لعلهم يهتدون إلى النور ويقلعوا عن الضلال الذي هم فيه، ولعله إنكاري بمعنى إنكار توبيخ على عدم تدبرهم القرآن تدبرا يوصلهم إلى فهمه والإيمان به(89).

ولعل وجه التناسب يكمن في كون قوله تعالى چک گ گ گ گ ڳ ڳچ جاء بمثابة علة أخرى توضح سبب الأوصاف التي ذكروا بها منذ مطلع السورة (90)، وكأن قلوبهم وضع عليها أقفال محكمة فلا يمكن كسرها للنفوذ داخلها، وفيه نوع من التمثيل إذ استحالت هذه القلوب صناديق أو مغاليق لا يمكن إزالتها "فلا كفرهم يخرج ولا الإيمان الذيُ يدعون إليه يدخل "(91)، ومن المفسرين من حمل چگ گ ڳ ڳ چ على معنى الاستعارة المكنية (92)، على أساس أن القلوب شبهت بالأبواب أو الصناديق وحذف المشبه به، وأبقي خصيصة أو لازمة من لوازمه وهو القفل، ونحن نميل إلى جعل الاستعارة تمثيلية، والتمثيل فيها ظاهر ولا نحتاج حينئذ إلى التأول والتماس وجه من وجوه حمل المعنى.

---

(87) التحرير والتنوير:303/4.

(88) سورة محمد, الآية:24.

(89) ينظر: نظم الدرر: 170/7, والتحرير والتنوير: 113/26.

(90) ينظر: التفسير الكبير: 57/28.

(91) ينظر: نظم الدرر: 170/7.

(92) ينظر: التحرير والتنوير: 114/26.

والتناسب يتراءى في هذا الموضع من خلال تجسيد معاني الكفر التي هي أعراض معنوية مجردة عقلية بشيء محسوس مادي وهو الصناديق أو الحُجُر المقفلة التي لا تسمح بالدخول أو الخروج , وهذا كله تكثيف للمعاني التي تقدم سردها منذ مستهل السورة(93).

وهكذا تتعاقب مظاهر التناسب في السورة تترى، إذ مثل الاستفهام في الآية السابقة چگ گ ڳ ڳچ إلجاما لمن "لا يعي الكلام حق وعيه عن السبب الموجب للعن المسبب للصمم والعمى أجابه بقوله منكرا مظهرا لتاء التفعّل إشارة إلى أن المأمور به صرف جميع الهمة إلى التأمل "(94)، فربما تحذلق المتحذلقون في بيان سبب ما فعله الله بالكافرين، وربما وصفوا هذا الجزء بأوصاف لا تليق بالله ومتعلقة بشدة العقاب، فحري بهؤلاء وأمثالهم أن يستبينوا العلة من كلام الله سبحانه، ففيه شفاء كل عِيٍّ.

ويمضي السياق القرآني في بيان العلل التي اقتضت كفر الكافرين وحالهم في الدنيا ومصيرهم البائس في الآخرة، فقد بين قوله تعالى چڳ ڳ ڱ ڱ ڲ ڲ ں ں ڻ ڻ ڈ ڈۀ ۀ ہ ۂ ۂچ(95)، علة أخرى من علل إصرارهم على الكفر وهي تسويل الشيطان لهم وإغرارهم، ووجه التناسب نلمحه في أمرين:

الأول: تجلية سلوك الكافرين طريق الكفر والضلالة، بل إصرارهم عليه وموتهم دونه، كما قال الله تعالى في سورة أخرى چڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑچ(96).

والثاني: يتجلى في قوله تعالى چڳ ڳ ڱ ڱ ڲ ڲ ں ں ڻ ڻ ڈ ڈۀ ۀ ہ ۂ ۂچ(97)، إذ يوحي هذا الجزء من الآية حجم جُرْمِهم وكبيرة كفرهم,وفي الآية السابقة تصوير لحال المنافق الذي في أول أمره أبصر النور,يبدأنه تركه

---

(93) ينظر: نظم الدرر: 170/7.

(94) ينظر: نظم الدرر: 170/7.

(95) سورة محمد, الآية:25.

(96) سورة مريم , الآية:83.

(97) سورة محمد, الآية:25.

وعاد إلى كفره فهؤلاء في موقفهم كمن رجع القهقرى، فعلى الرغم من وضوح الهدى الذي جاء به رسول اللهﷺ لهم فإنهم أوغلوا في كفرهم كما فعل قوم نوح في قوله تعالى چۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ي ي ئا ئا ئە ئەچ(98)، وهذا السياق استكمال لأوصاف الكافرين، وعلة أخرى من علل إعلان الحرب عليهم في مستهل السورة كما سبق ذكره.

وثمة نوع آخر من أنواع التناسب، وهو ذكر النفاق وقسم من صفات المنافقين، ومن الجلي وضوح العلاقة بين الكفر والنفاق، ولاسيما أن السورة مدنية وقد عالجت نوعين من أنواع العداء للرسول ﷺ ودينه وكلاهما كان في زمان نزول السورة ومكانها. فالكافرون في خارج المدينة، والمنافقون بين ظهراني المؤمنين، ولكي لا يهمل البيان القرآني ذكر صنف دون آخر فقد رأيناه بين العدوين كليهما، قال الله تعالى چہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇۇ ۆ ۆ ۈچ(99) ومن الملفت للنظر في سياق هذه الآية وما جاورها أن البيان القرآني يذكر حكما في آية ثم يذكر علته في الآية التي تليها، إلى جانب ذكر النفاق بعد الكفر، من ذلك قوله تعالى:

چڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ھ ھ چ(100)، عقَّب بعد ذلك بقوله تعالى چہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇۇ ۆ ۆ ۈ چ (101)، فاسم الإشارة (ذلك) كان بمثابة بيان لعلة الحكم، ويظهر هذا السياق تشابك الكفر مع النفاق في سبيل محاربة الدين الإسلامي, واستمرارا لهذا النوع من الأسلوب رأينا التعبير القرآني يذكر جزاء الكافرين والمنافقين لحظة موتهم، قال تعالى چۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ېچ(102)، والاستفهام هنا للتهويل والوعيد، أي تهويل مصيرهم ووعيدهم بعذاب الله وهو وحده يعلم كنهه، وكأننا نرى القرآن

---

(98) سورة نوح , الآيات: 5− 7.

(99) سورة محمد, الآية:26.

(100) سورة محمد, الآية:25.

(101) سورة محمد, الآية:26.

(102) سورة محمد, الآية:27.

الكريم يذكر نوع الجزاء لمن كفر ولمن نافق مُخْفِياً كفره في زعمه على الله تعالى، فكان الجزاء من جنس العمل، فإذا استطاع أولئك التشدق بإعلان عداوتهم لله ولرسوله، واستطاع أولياؤهم من المنافقين التستر بكفرهم أمام المؤمنين فماذا سيفعلون عندما يعودون إلى العزيز الحكيم، ولهذا قال الله تعالى چۈ ۇٴ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ چ، وهو وجه من وجوه التناسب الكثيرة.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى چې ې ې ى ئا ئا ئە ئە ئو چ (103)، إذ صدرت الآية باسم الإشارة (ذلك) وهنا جاء بمثابة أداة تعليل لحكم سابق ذكر في الآية التي قبلها، وهو بيان لحظات موتهم وهولها، إذ تثير هذه الآية سؤالا حول سبب تعذيب المعرضين عن الهدى كفارا ومنافقين، ثم تأتي الآية التي بعدها والتي نحن بصدد تحليلها لتجيب عن هذا السؤال، قال تعالى چ ې ې ې ى ئا ئا ئە ئە ئوچ(104) وكثيراً ما تكرر اسم الإشارة أداة وصل وربط بين سياقين(105).

وهذا كله لكي تظهر السورة في أوج سمة من سمات التناسب، ويطالعنا موضع آخر من مواضع التناسب في بيان المنافقين ووعيدهم، قال تعالى چئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئې ئى ئى ئى ی ی ی ی ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ٺ چ(106)، فلما كان السياق يتحدث عن أعداء الله ورسوله من الكافرين والمنافقين ناسب أن تأتي هاتان الآيتان لتعالج مسألة الإنفاق، فمن تجليات التناسب قوله چ ئې ئى ئى ئىچ، فأضغان النفاق مطمورة في قلوبهم، والله وحده قادر على إخراجها، فالإخراج ناسب الإخفاء، وإراءة الله المنافقين لرسوله ﷺ منسجمةٌ مع النفاق الخفي في أثناء صدورهم وهم يتخفون بين ظهراني المؤمنين , في قوله تعالى چٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ چ(107)، وقد جاءت في أعلى

---

(103) سورة محمد, الآية:28.

(104) سورة محمد, الآية:27.

(105) ينظر: دلالات التراكيب , د. محمد محمد أبو موسى/338–339.

(106) سورة محمد, الآيتان:29–30.

(107) سورة محمد, الآية:31.

درجات البلاغة من حيث اقتضاء المقام ومناسبة السياق، فأما اقتضاء المقام ففيه تحذير للمؤمنين لكي لا يقعوا في شرائك النفاق، فكم من مدع للإيمان نكص على عقبيه في أدنى بلوى تصيبه، كما قال تعالى **چڱ ڱ ڳ ڳ ڭ ڭ ڱڳ ں ں ڻ ڻ ٹٹ ۀ ۀ ہ ۂ ہ ہ ہ ھھ ے ے ۓ ۓچ**(108), وأما مناسبة السياق فقد مثلت خاتمة حسنى في موضعها، كما مر ذكره.

ولكي لا يبعث الإحباط في نفوس المؤمنين من استمرار عداوة أعدائهم وعظم مكايدهم لهم ولدينهم الحق على مر الزمان, رأينا البيان القرآني يختم سياق الحديث عن الكفر والكافرين بقوله تعالى **چڈ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژچ**(109)

وظاهر الأمر أن في سياق السورة تكراراً، إذ تكرر هذا المعنى في أكثر من موضع منها, والحق أن هذا ليس تكراراً مجرداً لا يخدم المعنى، بل إن أساليب التكرار في القرآن الكريم كله من النوع المحمود الذي اقتضته المعاني وتطلبه السياق القرآني, ولاسيما وأنه ورد في الأمور المهمة والمعاني التي يحرص القرآن الكريم على أن يبثها في القلوب ويثبتها في الضمائر (110)، بل لا نبتعد عن الصواب إذا قلنا عن هذا الأسلوب إنه تكرار بالمعنى الحرفي وإن اشتركت الآيات التي ظاهرها التكرار في المعاني العامة، لكنها تتمايز عن بعضها من حيث دلالاتها الخاصة التي خدمت السياق، كما وجدناه في هذه السورة وفي هذا الموضع فان الآية السابقة جاءت في موضعها لتزيل الهم عن قلوب المؤمنين الذين يخشون على دينهم من حجم المكائد واستمرارها ولتبين أن مهما تعظم مكائد الكفار ومساعيهم فان الله سيحبط أعمالهم، وإن كان هؤلاء الأعداء متخفين بين ظهراني المؤمنين، وهم المنافقون، فسيتحقق وعد الله للمؤمنين ووعيده للكافرين

---

(108) سورة الحج , من الآية:11.

(109) سورة محمد, الآيتان:32-33.

(110) ينظر: الإعجاز البلاغي –دراسة تحليلية لتراث أهل العلم – , د. محمد محمد أبو موسى/81.

والمنافقين بإحباط أعمالهم، وهو وجه التناسب الذي جاءت الآية لتجسده في أسلوب السورة جميعها.

فضلاً عن كون هذه الآية تناسب من حيث المعنى مطلع السورة واستهلالها الذي تحدث عن إضلال أعمال الكافرين وهو عين إحباطها(111).

ومن التقابل الذي مثل قيمة بلاغية ودلالية ذكر إحباط أعمال الكافرين وتحذير المؤمنين من أن لا يُحبِطوا أعمالهم وهو أيضاً من وجوه التناسب المتجلي في السورة، فلما كانت السورة موضحة إضلال أعمال الكافرين في موضع وإحباطها في موضع آخر، وذكرت أسباب هذه الخاتمة السيئة والمصير الذي سيؤول إليه هؤلاء الكفار، حذرت المؤمنين لكي لا يعملوا من الأفعال ما يبطل أعمالهم، وإبطالها مرتب على عدم إطاعة الله وإطاعة الرسول ﷺ، وهذان الفعلان هما سبب إضلال أعمال الكافرين كما قال تعالى ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭽ(112)، وثمة وجه آخر من وجوه التناسب بين مطلع السورة وبين خاتمتها التي استغرقت قوله تعالى ﭽ ڃ ڃ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﮭ ﮭ ﮮ ﮮ ﮯ ﮯ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ﯦ ﯦ ﯧ ﯧ ﯨ ﯨ ﯩ ﯩ ﯪ ﯪ ﯫ ﯫ ﯬ ﯬ ﯭ ﯭ ﯮ ﯮ ﯯ ﯯ ﯰ ﯰ ﯱ ﯱ ﯲ ﯲ ﯳ ﯳ ی ی ی ی ﭼ(113) فمن أوجه التناسب بين الاستهلال والخاتمة حديث الخاتمة عن دعوة المؤمنين إلى طاعة الله, وطاعة رسوله الكريم وبيانها عاقبة الكافرين ومصيرهم الهالك، فضلاً عن دعوة المؤمنين إلى عدم الركون إلى السَّلم الذي قابله في مطلع السورة العودة إلى قتال المشركين (114)، بل وفي السورة كلها ومقابلتها بين وضع المؤمنين بالله ورسوله وهم الأعلون، وبين حال الكافرين الصادين عن سبيل الله في الدنيا والآخرة، ولكي تحيا دولة الإسلام

---

(111) ينظر: التفسير الكبير: 28/ 62.

(112) سورة محمد, الآيتان: 1–2.

(113) سورة محمد, الآيات: 33–38.

(114) ينظر:تناسق الدرر في تناسب السور/ 121.

قوية لابد من كون المؤمنين على أهبة الاستعداد لمواجهة المكائد التي تحاك ضدهم وهذا كله يتطلب البذل والسخاء للأموال فضلاً عن الأنفس، ولهذا دعاهم البيان القرآني إلى الإنفاق في سبيل الله وذم البخل , ومن عجيب بلاغة القرآن الكريم وجه المناسبة بين ذكر وصف الحياة الدنيا باللهو واللعب, وذكر الأموال التي ستفيض على المسلمين, ويوحي ذلك بنوع من التحذير لأفراد المجتمع المؤمن عن انشغالهم بالأموال التي يمثل إقبالها انشغالاً بالدنيا ونعيمها, فيؤدي ذلك إلى ركونهم إلى السلم والقعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى, وهو ما حذرت السورة منه(115).

ومما يلفت النظر في أسلوب السورة تكرار چ ئۈ ئى ئېچ(116)) و **چۉ ۇچ**(117) , وفيه نوع من التناسب بين مضامين السورة , ذلك أن قوله تعالى: **چ ئۈ ئى ئېچ** جاء في سياق الحديث عن المنافقين الذين كانوا يوهمون أنفسهم أن الله تعالى غير مطلع على حقيقتهم, أما قوله تعالى: **چۉ ۇچ** فجاء في سياق الحديث عن البخل الذي قد يؤدي بصاحبه إلى النفاق , كما قال تعالى في سورة التوبة مبينا سبب نفاق من نافق: **چ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙچ**(118).

ويمكن أن نتلمس وجهاً آخر من التناسب بين مطلع السورة وخاتمتها, فالسورة استُهِلَّت بالحديث عن الكافرين الذين استبدلوا دين الله الحق بدين باطل, في حين أن السورة خُتمت بتحذير الله تعالى لمن يؤثر الكفر على الإيمان ويتولى عن دين الله بأن يُذهِب الله تعالى به ويأتي بآخرين يكونون على مراد الله تعالى وهديه , فالاستبدال المذكور في أول السورة ناسب الاستبدال المذكور في خاتمتها

---

(115) ينظر: التحرير والتنوير :26/133-135.

(116) سورة محمد , من الآية 29.

(117) سورة محمد, من الآية 37.

(118) سورة التوبة , الآيات 75-77.

والجزاء من جنس العمل [119], وفضلاً عن هذا فإن الله تعالى قضى بإضلال أعمال الكافرين وإصلاح أفعال المؤمنين ومساعيهم في الحياة الدنيا, وفي خاتمة السورة يمكن أن يكون استبدال الكافرين بالمؤمنين نوعاً من إضلال الأعمال, وإيقاع الوعيد وتحقيقه لمن يصر على الكفر.

ولكي لا يتوهَّم واهم أن الله تعالى محتاج إلى حسنات المحسنين وعبادة المطيعين قرر في خاتمة السورة أنه الغني بذاته سبحانه وغيره مفتقر إليه, فمهما يفعل الصالحون من أعمال بر فهي في أولها وآخرها لهم ,ومهما يُعص الله تعالى وإن كان العباد على أفجر قلب رجل لا يضره ذلك.

ومما يلحظ في العلاقة بين مطلع السورة وخاتمتها أيضاً أن مطلعها فصَّل بنوع من التفصيل ذكر الصنفين من البشر المؤمنين والكافرين, وبين جزاءهم وعاقبتهم, في حين أن خاتمة السورة أجملت

في ذكر هذين الصنفين, وكأنَّ التعبير القرآنيَّ انتهج أسلوب الإجمال بعد التفصيل, على أساس أن المذكورين هنا ذُكِروا تفصيلا هناك عن طريق ذكر ألفاظ تدل على نفي المشابهة **چ ئىچ و چ ى ى يچ** فهما مذكوران للإشارة إلى نوعي بني آدم عليه السلام.

المبحث الرابع: التناسب التركيبي

لكي يستكمل البحث جوانبه التطبيقية لابد من تناول مفهوم التناسب في الجانب التركيبي, وقد نبه العلماء إلى مسألة مهمة تتعلق بالعلاقة بين التناسب والتلاؤم, إذ أطلقوا الأخير على وصف جماليٍّ يتعلق بفصاحة المفردة وفصاحة التراكيب وبلاغتها ووضعوا شروطا لكي يصح وصف الألفاظ بالفصاحة أو التراكيب بالبلاغة و بالتلاؤم[120].

ولذلك فإن مصطلح التلاؤم ألصق بالجانب التركيبي و"يلتقي هذا الوجه مع الفواصل والتجانس في أن ثلاثتها تنظر إلى البناء الصوتي في أسلوب القرآن

---

(119) ينظر: نظم الدرر:150/7.

(120) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة:1/3–10.

الكريم وتلفت إلى ما فيه من التفوق والتأثير" (121) وعلاقته بالتناسب تمثل علاقة الجزء بالكل, فكل تلاؤم يمكن أن يوصف بالتناسب, إلا أن التناسب يأخذ مدى أوسع ليشمل التراكيب والمضامين, ولذلك فقد اعتمدناه في تسمية بحثنا هذا, كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

ومما يلفت النظر في الجانب التركيبي للسورة اعتمادها أسلوب التكرار بأنماطه المختلفة , ذلك "أن التكرار في القرآن الكريم أحد عناصر بلاغته التي تحتاج إلى دراسة مستقلة تتبين بدقة المعاني التي تكررت والمعاني التي لم تكرر"(122) وإن قولنا في وصف مثل هذه الظاهرة بالتكرار إنما نعني به التكرار بمعناه اللغوي العام , وإلا فإن في القرآن أساليب خاصة فرادتها من فرادة ذلك الكتاب العزيز المتفرد في جوانبه كلها, وتتحول المعاني المتعددة فيه إلى أجزاء متناسبة تصاغ في كل واحد منها, ولكل جزء منها مكانه الذي لا يصلح فيه غيره, ثم هو في هذا المكان يمهد للاحقه ويردف سابقه , في نظام وترابط بلغ من الدقة حداً لا يدركه إلا من عانى التفسير واجتهد في النظر في مناسبة الآيات(123) وهذا التفصيل ينطبق على السورة موضوع البحث.

والناظر في بنيتها التركيبية يجد ثمة تراكيب وصيغ وأوزان تكررت في مواضع مختلفة من السورة, وسنقتصر على بعض من هذه الأنماط التي ظاهرها تكرار, إلا أن لها في مواضعها دلالات إضافية جديدة. فمن ذلك تكرار بنية الاسم الموصول مع صلته **چ ۋ ۅ چ** وما يقابلها **چ ڲ ۇچ** إذ تكررت في الآيات:1, 3, 4, 6, 12, 34.

ولعل من مسوغات ذلك التكرار أن السورة خصصت للحديث عن صنفي بني آدم, وهم المؤمنون والكافرون وأولياؤهم من المنافقين , وجاء هذا التكرار ليحقق غرضاً دلالياً يخدم السورة , وفضلاً عن هذا فإنه أدى وظيفة هي أقرب إلى جانب الإيقاع اللغوي عن طريق تكرار بنىً لغوية معينة, وقد ذكرنا سابقاً أن

---

(121) الإعجاز البلاغي/ 152.

(122) الإعجاز البلاغي/82.

(123) ينظر: إعجاز القرآن , أبو بكر الباقلاني 34-38, 183-184.

السورة جاءت بمثابة إعلان القتال الذي لا هوادة فيه على الكافرين أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. لذا فقد وجدنا أنماطا لغوية أخرى انسجمت مع هذا المعنى والغرض في السورة قد تكررت, ومن المهم في هذا المقام التذكير بالغرض العام للسورة وهو نصر المؤمنين وإذلال الكافرين وإهلاكهم, ولذلك فقد كرر البيان القرآني صيغا لغوية تتناسب مع هذا الغرض, منها: (أضل أعمالهم), بحق الكافرين, فقد تكرر في الآيات : ((1, 4, 8)), وفضلا عن هذا فقد تكرر ما يدل على إضلال أعمال الكافرين **ڇ ئہڇ**أعمالهم بصيغة الماضي و **ڇڇ ڇڇ** المستقبل في الآيات:((9 ,28, 32)).

ومما يلحظ على التركيب الأخير مقاربته لدلالة إضلال الأعمال , إذ إن من لوازم إضلال العمل إحباطه وضياعه بعد أن يبذل صاحبه الجهد والتعب لانجازه , كما قال تعالى **ڇگ گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ ں ں ڻ ڻ ڈ ٹڇ**[124] , ومما يلحظ في البيان القرآني استعمال الماضي**ڇئہ ڇ** والمضارع **ڇڇ ڇ**لشمول هذا القضاء الإلهي الكوني والشرعي أعمال الكافرين التي كانت ولا تزال تحاك للإيقاع بالإسلام وأهله وفيه بشارة للمؤمنين, ولهذا فقد وظف التعبير القرآني ألفاظاً تحمل معنى إضلال العمل, وتتناسب مع أجواء السورة التي بينت مصير الكافرين وأعمالهم ومنها: **ڇۇ ۋڇ وڇى ى ي ڇ ڇ ٹ ٹ ٹ ڇ وڇ ڃ ڇ.**

ولهذا رأينا لغة السورة تميل إلى توظيف أفعال توحي بهذا المعنى وتتلاءم معه , ولاسيما في حديثها عن الكافرين, ومنها: **ڇ ژ ڑڇ و ڇى ى ي ڇ و ڇ ك ك ڇ و ڇ ه ڇ** , وهذا كله يحقق منحىً أسلوبياً يتجسد فيه معنى التناسب بأوضح صوره ليخرج التعبير القرآني بنا إلى سمة التلاؤم التي تحدث عنه البلاغيون ليصفوا به نوعاً من الكلام ائتلفت فيه الأصوات مفردة لتؤلف لنا ألفاظاً وتراكيب مؤتلفة مع الدلالة المتضمنة والغرض الكلي للنص

---

(124) سورة الكهف , الآيتان 103-104.

والأجواء المفعمة بالشدة والقتال وصليل السيوف, ولها وقع حسن في أذن السامع، كما نرى ذلك في السورة.

ولكي لا يأخذنا الحديث في دلالات الكفر والكافرين ومصيرهم المحتوم عن موضوعنا، لابد من تناول الصورة المقابلة التي تبعث الأمن والطمأنينة في النفس البشرية القلقة , وهي أجواء الإيمان وما أعد الله للمؤمنين من جزاءٍ في الدنيا والآخرة , فقد وظُف البيان القرآني تراكيب تتسجم مع هذا المعنى, وكما تحققت السمة الأسلوبية التي مر بيانها في السورة السابقة, فقد رأينا هذا الملمح التعبيري يتكرر هنا أيضاً, إذ ترددت تراكيب معينة تحمل البُشرى للمؤمنين وتتسجم مع أجواء الإيمان وأهله ومصيرهم, ومنها: **ﭽ ڈ ڈ ڤ ڤ ڦ ﭼو ﭽ ۀ ہ ۂ ھ ۀ ھ ھ ﭼ** و **ﭽ ﯔ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚﭼ**، ودلالاتها جميعا متقاربة من حيث كونها تحمل معنى إصلاح بال المؤمنين وتكفير سيئاتهم ومن ثم نصرهم وتثبيت أقدامهم , كما عبر عن ذلك القران الكريم قال تعالى: **ﭽ ۋ ۅ ۇ ۆ ۆ ۈ ۉ ۉ ۋﭼ**(125).

ولعل سائلاً يسأل عن وجه التناسب في ذلك كله؟ إن أمارات التناسب تتجلى في كون التراكيب التي ذكرناها تكررت في أكثر من سياق, وكلها سياقات تبين جانباً معيناً من الحوادث التي قد تصيب المؤمنين ودولتهم التي هي في مواجهة مستمرة مع الكفر وأهله, قال تعالى **ﭽ ک ک ک ککگ گ گ گ گﭼ** (126).

ولما كانت الأجواء أجواء مواجهة ومكائد , فقد تبعث اليأس والإحباط في نفوس المؤمنين ليستكينوا إلى الراحة الزائفة ويتركوا ما ينصلح به أمرهم في الدنيا والآخرة , لذلك رأينا التعبير القرآني يعتمد وسيلتين ليجنب الإيمان وأهله ذلك المصير , وهما:

الأولى: تكراره أنماطاً لغوية تحمل البشرى بالنصر والتمكين للمؤمنين.

---

(125) سورة محمد , الآية 7.

(126) سورة البقرة , من الآية 217.

الثانية: ختم السورة بما يحذر المؤمنين من ذلك المصير, قال تعالى **ﭼﮗ ﮘ ﮙ ں ڻ ڻ ڈ ڈ ۀ ۀ ہ ﭽ**(127) , وهكذا فقد تجلى عنصر التناسب التركيبي في هذه الصورة التي تناولت جانب الإيمان وأهله.

ومن وجوه التناسب التركيبي في السورة فواصلها كما هو الحال في القرآن الكريم كله, والحق أن الفواصل تمثل نوعاً من إعجاز القرآن في جانبه التركيبي الإيقاعي, إذ إنها عبارة عن مقاطع صوتية تتردد في مجموعات معينة من الآيات, وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيبا ملفتا للنظر يتلاءم مع نوع الصوت، وتجتلبها المعاني التي تبنى عليها الآية, وهي من بلاغة القرآن المعجزة, والخواص المسموعة من آيات الكتاب العزيز, وهي خارقة لما اعتادت عليه أذن العربي وهو يتلقى الأشعار والأسجاع(128).

وقد ذكرنا في صفحات سبقت أن مدار السورة إنبنى على معالجة موضوعي الإيمان والكفر, وما يترتب عليهما من أعمال المؤمنين والكافرين , ولذلك فقد رأينا فواصل آيات السورة متضمنة ما يرتبط بذلك ارتباطاً عضوياً دلالياً, ويمكن إيجاز هذه الفواصل بما يأتي:

* الفاصلة الأولى: "ﭙ "وتكررت في الآيات:((1 ,4, 8, 9, 28, 32)).

* الفاصلة الثانية: ﭞ "وتكررت في الآيات: ((30 , 33, 35)).
* الفاصلة الثالثة: "ﭬ " وتكررت في الآيات: ((2 , 5)).
* الفاصلة الرابعة: "ﭼ " وتكررت في الآيات: ((3 ,10 , 38)).
* الفاصلة الخامسة: "ﮃ "وتكررت في الآيات: ((6 , 11,12, 13, 20, 21, 25, 34)).
* الفاصلة السادسة "أ ذ "وتكررت في الآيات:((14,16)).

وإذا تأملنا في هذه الفواصل مفردة ومن حيث مواقعها التي جاءت فيها لوجدنا سمة التناسب ظاهرة وتمثل نوعا من الإعجاز اللغوي البلاغي.

---

(127) سورة محمد , الآية 35.

(128) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ 216–217, والإعجاز البلاغي/ 163.

أما الفاصلة "ڀ "فقد ختمت بها الآية الأولى التي تضمنت إيضاح مقاصد الكافرين ومساعيهم في صدهم عن سبيل الله سواء بأنفسهم أم صدهم الآخرين, ولذلك فهذه المساعي تمثل نوعا من الأعمال التي يحرص عليها الساعون ويعملون على إدامتها وإنجاحها لتؤتيَ نتائجها المتمثلة بتعطيل شرع الله ومحو دينه, ولكن مقابل ذلك إرادة الله وتدبيره فهو سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد وكانت نتيجة ذلك أن ﭽﭙ ڀ ﭼ(129), فهذه الفاصلة جاءت بمثابة الحتمية الدلالية التي اقتضاها التركيب و لزِمَها المعنى , ونلمح الفاصلة نفسها تكررت بعد أربع آيات, هي قوله تعالى: ﭽپ پ ٻ ٻ ٺ ٺ ٹ ٹ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڄ ڄ ڇڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڏ ڏ ڏ ڑ ڑ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ ں ں ڻڻ ڻ ۀ ۀ ه ہ ۂ ہﭼ(130) وهذه الآيات تحدثت عن أعمال من جنس آخر , وهي أعمال المؤمنين عبر أسلوب التقابل , وبلا شك فإن المؤمن الساعي ينتظر الثمرة الطيبة من سعيه , ولذلك فقد ختم هذا السياق بذكر إضلال الأعمال منفيا وهي في هذا الموضع أعمال المؤمنين , وثمة فاصلة مشابهة وهي "ٿ "وقد تكررت في مواضع ثلاثة(131) وكلها تتحدث عن أفعال العباد, ولذلك جاءت هذه الفاصلة متممة لمعاني الآيات.

في حين جاءت الفاصلة الأخرى "ڦ "بوصفها الجزء المتمم للآيتين الثانية والخامسة , والبال في اللغة يطلق على الخاطر وعلى القلب وعلى النفس ويسمى به أيضا رخاء العيش أو رخاء النفس, وكل هذه المعاني مرادة من دلالة البال(132) ونستطيع أن نستوحيَ من هذه اللفظة معنى المطمح الذي يروم ويرنو إلى تحقيقه الإنسان لينصلح روحا وجسدا, ولذلك فقد وجدنا التعبير القرآنيَّ يختم به سياق الآية التي حكت دأب المؤمنين في حياتهم وهو الإيمان والعمل الصالح الذي

---

(129) سورة محمد , من الآية.

(130) سورة محمد , الآيات 2-4.

(131) ينظر: سورة محمد , الآيات 30, 33, 35.

(132) ينظر: لسان العرب:542/1.

يقتضيه ذلك الإيمان, ومن دون شك فإنهم يطمحون إلى إصلاح بالهم, ولذلك فقد ختمت الآيتين بقوله تعالى: **ﭽ ﭫ ﭬ ﭼ**(133) وقوله تعالى: **ﭽ ﮩ ﮪ ﮫ ﭼ**(134) وهما النتيجة المحتمة لكل من يصدق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن الفواصل الأخرى "أمثال "وجاءت مرة مضافة إلى الضمير المتصل ((هم)), ومرة إلى ضمير الغائبة المتصل ((ها)), وثالثة إلى الضمير المتصل لجماعة المخاطبين ((كم)).

فأما قوله تعالى **ﭽﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﭼ**(135) فإن هذه الفاصلة "ﭽ"جاءت لتختم سياق الحديث عن إيمان المؤمنين وكفر الكافرين فإضلال أعمال الكافرين وتكفير سيئات الأبرار, أو كون الكافر متبعا للباطل وكون المؤمن متبعا للحق غدا مثلا يضرب , وإن إضلال الأعمال الكافرين وإصلاح أعمال المؤمنين كله عائد إلى الله تعالى.

ولذلك ختم البيان القرآنيُّ هذه الآية بقوله تعالى: **ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﭼﭽ**(136), والسياقان الآخران متشابهان من حيث الدلالة على مضرب المثل, فقوله تعالى: **ﭽ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﭼ**(137) تحدث عن جانب من جوانب الكفر, بل بيَّن عاقبة الكافرين قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم, وفيه تحذير للكافرين المعارضين للدعوة الإسلامية, ولذلك ذكرهم بذلك المصير السيئ وختم تحذيره بقوله تعالى: **ﭽ ﯨ ﯩﭼ**(138) , إلا أن "ﯩ"

---

(133) سورة محمد , من الآية 2.

(134) سورة محمد , من الآية 5.

(135) سورة محمد , من الآية 3.

(136) سورة محمد , من الآية 3.

(137) سورة محمد , الآية 10.

(138) سورة محمد , من الآية 10.

اختلفت من حيث دلالتها عن الفاصلتين الأخريين, والأمثال هنا تعني الأشباه والنظراء (139) , ولما كان السياق متضمنا تحذيرا للمؤمنين إن تولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته خُتِم السياق بتوظيف الفاصلة "أمثالكم "منفية فقال تعالى: **ﭼ ﯫ ﯨ ﯨ ﯩﭼ**(140).

ومن الفواصل الأخرى التي تكررت ثماني مرات "ﯓ ", واحدة في سياق الحديث عن المؤمنين, في حين أن السبعة الباقية عن الكفر والكافرين, ومن دلالات "ﯓ "كون الضمير المتصل ((هم)) شكل شبه جملة تحمل معنى الظرفية وغاية الشيء مع تضمنها دلالات فرعية يُكسِبها السياق الذي تأتي فيه.

فأما الآية التي تناولت الحديث عن المؤمنين فقد مثلت خاتمة سياق لصنف منهم وهم الذي قتلوا في سبيل الله تعالى وبينت مصيرهم المتمثل بدخول الجنة, ولذلك خُتِمَ هذا السياق بقوله: **ﭼ ﮯ ﮱ ﯓﭼ**(141), ومن دلالات ((اللام)) هنا الاختصاص (142) فالجنة معرفة للمؤمنين خاصة.

وأما سياق الحديث عن الكافرين فقد جاء في دلالات مختلفة, منها نفيه وجود المولى الحقيقي لهم, وتقريره أن النار مثوى لهم, سياق تهديدهم ووعيدهم, وبيان أن حقيقة عملهم من الشيطان, وختام هذه السياقات قضاء الله سبحانه عليهم بعدم الغفران.

والملاحظ على هذه الآيات أنها تتحدث عن شؤون يكون نهاية مطافها متعلِّقا بالكافرين سواء في علاقتهم مع الله سبحانه وتعالى أم مصيرهم بالآخرة وهو النار, أم في حقيقة أعمالهم ومصدرها, وكل ذلك يحتاج إلى ضمير عائد إلى المتحدث عنه ومركب مع لام الجر ليؤدي دلالة معينة يقتضيها السياق, وتحمل

---

(139) ينظر: لسان العرب:21/13.

(140) سورة محمد, من الآية 38.

(141) سورة محمد, الآية 6.

(142) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني , الحسن بن قاسم المرادي/96.

هذه الدلالة على معنى الاستحقاق(143) المتولد من دلالة لام الجر سواء أكان هذا الاستحقاق مثبتا أم منفيا.

وأما الفاصلة "ذ "فقد ترددت مرتين, الأولى: في قوله تعالى **چڍ ڍ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڄ ڄ ڄ ڌ ڌ ڎچ**(144) , والحقيقة أن التناسب التركيبي لا يحتاج مزيد تأمل لإدراكه , ذلك أن تسلسل الآية في سياقها مثلت خاتمة بينت أحوال الإيمان والمؤمنين , والكفر والكافرين وما يتعلق بهمِ من جزاء ومصير, وأراد التعبير القرآنيُّ في إثباته الآية السابقة نفي المماثلة عن طريق الاستفهام الإنكاري المتضمن معنى التشابه بين من كان على هدى ومن اتبع أهواءه , أما الموضع الثاني ففي قوله تعالى: **چۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ چ**(145) ومثلت بداية سياق تحدث عن صنف آخر من البشر وهم المنافقون, ولما أراد القرآن الكريم توضيح أماراتهم استدعى التركيب علة سلوكهم هذا النوع من العقائد , وتمثلت بقوله تعالى: **چ ﯯ ﯰچ**, إنها الأهواء وسلطانها الذي يدفع أولئك القوم إلى هذا السلوك.

ولعلنا بذلك نكون قد جلينا عن قسم من جوانب التناسب التركيبي في السورة, وإلا فإن استقصاء مظاهر هذا النوع من التناسب في آي السورة الكريمة ضرب من المستحيل, ومظاهر الجمال ومنها اللغوي مطلقة و متجددة في القرآن الكريم, وكلما تقدَّم البحث اللغوي استطعنا تجلية مظاهر أخرى من التناسب, فضلا عن أن موضوعنا يحتاج إلى بحث أكبر حجما وأوسع.

الخاتمة والنتائج

إذا كان علماء البلاغة قد بحثوا هذا الجانب الجمالي من مستوى التلاؤم أو التناسب في الكلام ليستنبطوا مجموعة الضوابط في الكلام المتلائم , فإن النص القرآنيَّ قد تفرد بكونه في الطبقة العليا المعجزة من التناسب أو التلاؤم إذ تحقق

---

(143) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني /96.

(144) سورة محمد, الآية 14.

(145) سورة محمد, الآية 16.

فيه هذا العنصر أو هذان العنصران الجماليان من حيث المضامين أو الأفكار والشكل أو التراكيب.

وأما مظاهر التناسب في سورة محمد ﷺ فقد كانت شاملة عناصر البناء اللغوي جميعها.. في اسم السورة, بل أسماء السورة وعلاقتها بالمضامين التي عالجتها السورة, فضلا عن مظاهر التناسب المتجلية في موقع السورة وعلاقتها مع ما قبلها وما بعدها, وبين مضامين السورة الكريمة كما أشَّرناه في البحث.

وقد صاحب مظاهر التناسب السابقة بناء لغوي منسجم متشابهة عناصره, فقد تجلت مظاهر التناسب التركيبي أو التلاؤم في السورة من حيث التراكيب اللغوية المكونة لبناء السورة, ومنها: تكرار تراكيب معينة في مواضع من السورة, وهذا النوع من الأساليب اقتضته مضامين السورة المبتغاة والتي هدف التعبير القرآنيُّ إلى إيصالها, وفضلا عن ذلك فقد وُظِّفت أفعال غلب على أوزانها ما يوحي بمعاني الشِّدة, وهو نوع من التلاؤم الشامل لكُلِّ عناصر الكلام كما جليناه في مواضعه.

ولذلك فقد اقتضت قوانين البنية اللغوية القرآنية نوعا من الألفاظ التي اصطلح علماء المعاني على تسميتها بالفواصل, وقد لمسنا من خلال نظرنا في طبيعة هذه الألفاظ وعلاقتها بالسياقات التي ختمتها نوع العلاقة التلازمية دلاليا(146), ولهذا فإن تميز الأسلوب القرآنيَّ بمثل هذا النوع من الأساليب وإطلاق هذه التسمية "الفاصلة "على تلك التراكيب أو المفردات مما توجبه قواعد البحث اللغوي, ويقتضيه منطق اللغة عند إجراء موازنة بين التعبير القرآنيِّ وبين أساليب البشر.

---

(146) ينظر:الفاصلة القرآنية , د.عبد الفتاح لاشين/6.

Proportion in Surah Mohammad "A rhetoric Study "

Dr. Ahmed Mohammad Ali& *Ahmed Yahya Ali**

ABSTRACT

Proportion is one of the rhetorical terms used to conceive aesthetic feature and to explain a certain level of rhythm where speech characteristics belong to a class of rhetoric with collection of conditions are realized .

According to the dissimilarity of these conditions, the rhetorical or Proportional levels are differentiate, on the base that the proportion in its final result represents the rhetoric and eloquence of the text. These terms have meaning which meet in many sides to refer to the rhetoricians distinguished among them in semantics and the conditions of structure in the text.

This text is an attempt to recognize proportion concept as a linguistic and aesthetic values as well as the assembled terms with it semantically and functionally: harmony, similarity and congruity. The investigation in these aesthetic values will be presented through the 'sura of Mohammed' "PBUH". This researed prefers to use proportion as a title through clarifying its aspects in this sura.

---

* Dep of Arabic/ College of Arts/ University of Mosul.
** Dep of Arabic/ College of Arts/ University of Mosul.